
سورة الأنبياء



سـورة الأنبيـاء(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ(٢) وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ①﴾

والاقتراب : إما أن يكون زمناً أو مكاناً ، فإذا كانت المسألة فى مسافات قلنا : اقترب للناس حسابهم يعنى مكانه . وإذا كانت للزمن قلنا : اقترب زمنه . فالاقتراب : دُنُو الحدث من ظرفيه زماناً أو مكاناً .

والحق سبحانه حينما يُعبِّر بالماضى ﴿ اقْتَرَبَ .. ①﴾ [الأنبياء] يدل على أن ذلك أمر لازم وسيحدث ولا بُدَّ ، والبشر حينما يتحدثون عن أمر مقبل يقولون : يقترب لا اقتربَ ؛ لأن اقتربَ هكذا بالجزم والحكم بأنه حدثَ فعلاً لا يقولها إلا الله الذى يملك الأحداث ويقدر

---

(١) سورة الأنبياء هى السورة رقم (٢١) فى ترتيب المصحف ، وهى سورة مكية فى قول الجميع ، وعدد آياتها ١١٢ آية ، وقد نزلت سورة الأنبياء بعد سورة إبراهيم وقبل سورة المؤمنين ، وهى السورة رقم ٧٢ فى ترتيب نزول القرآن . [انظر : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/٢٧] .

(٢) قال الضحاك : أى اقترب عذاب أهل مكة ، لأنهم استبطأوا ما وُعدوا به من العذاب تكذيباً ، وكان قتلهم يوم بدر . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٤٣] .

عليها ، أما الإنسان فلا يملك الأحداث ، ولا يستطيع الحكم على شيء لا يملكه بعد أن يتلفظ بهذا اللفظ .

ومثال ذلك في قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ①﴾ [النحل] فأتى تعنى أن الأمر حدث قبل أن يتكلم ، والأمر ما زال مستقبلاً بدليل قوله : ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ①﴾ [النحل] فلا يُقال لك : لا تستعجل شيئاً إلا إذا كان لم يحدث بَعْد . فكيف - إذن - جمع بين الماضى ﴿أَتَىٰ .. ①﴾ [النحل] والمستقبل ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ①﴾ [النحل] ؟

قالوا : أنت ممنوع أن تحكم بمُضيٍّ على أمر مستقبل ؛ لأنك لا تملك نفسك ، ولا تملك ظروف المستقبل ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ㉓ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. ㉔﴾ [الكهف]

لا بُدَّ أن تُردف هذا القول بالمشيئة ؛ لأن قولك « سأفعل ذلك غداً » قضيةٌ لها عناصر : الفاعل أنت والمفعول به والزمن غداً ، والسبب الذى يدعوك للفعل والقدرة التى تُعينك أن تفعل .

وهذه كلها عناصر لا تملك أنت شيئاً منها ، وربما جاء غَدٌ فتغيَّر عنصر من هذه العناصر ، وحال بينك وبين ما تريد ، فينبغى أن تُبرِّىء نفسك من احتمال الكذب فتقول : إن شاء الله وتردُّ الأمر إلى القادر عليه الذى يملك كل هذه العناصر ، وكأن ربك يُعلِّمك ألا تكون كاذباً .

لذلك نجد أن اللغة قد راعتْ قدرة المتكلم ، ووضعتْ له الزمن المناسب ، فإنْ علمتَ حدوث الفعل قُلْ بالماضى : حضر فلان ، انتهت القضية ، فإنْ علمتَ أنه توجه للحضور واستعدَّ له قُلْ : سيحضر فلان أى قريباً ، أو سوف يحضر أى : بعد ذلك .

هذا الذى يناسب قدرة البشر . أما الحق سبحانه فيملك زمام الأشياء وتوجيهها ، وكلّ شيء مرهون بأمره التكوينى ، فإنْ قال للأمر المستقبل : أتى أو اقترب فصدِّق ؛ لأنه لا شيءَ يُخرج الأمر عن مراده تعالى ، وهو وحده الذى يملك الانفعال لكلمة كُنْ ، فإنْ قالها فقد انتهتْ المسألة .

لذلك يقول سبحانه ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ① ﴾ [الأنبياء] بصيغة الماضى ولم يقل : يقترب أو سيقترب ؛ لأن المتكلم هو الله .

وقد ورد الماضى (اقترب) أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① ﴾ [القمر]

وفى قوله تعالى ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ⑲ ﴾ [العلق] فاقترب غير قَرُب ، قرُب : يعنى دنا ، أما اقترب أى : دنا جداً حتى صار قريباً منك .

والحساب : كلمة تُطلَق إطلاقات عدّة ، فالحساب أنْ تحسب الشىء بالأعداد جمعاً ، أو طرحاً ، أو ضَرْباً ، وتدير حصيلة لك أو عليك ، فإنْ كانت لك فأنت دائن ، وإنْ كانت عليك فأنت مدين . أو تربط المسبِّبات بأسبابها .

وهناك أمور تأتى بغير حساب ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ㊲ ﴾ [آل عمران] فهذه مسألة لا تستطيع ضبطها ، والله لا يُسأل : أعطانى زيادة أم نقصاناً .

أما الحساب فى ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ① ﴾ [الأنبياء] فيقتضى مُحَاسِباً هو الله عز وجل ، ومُحاسَباً هم الناس ، ومُحاسَباً عليه وهى الأعمال والأحداث التى أحدثوها فى دنياهم ، وهذه قسمان : قسم قبل أنْ يُكلَّفوا ، وقسم بعد أن كُلِّفوا .

ما كان قبل التكليف وسِنِّ البلوغ لا يحاسبنا الله عليه ، إنما تركنا نمرح ونرتع فى نعمه سبحانه دون أن نسأل عن شىء ، أما بعد البلوغ فقد كلَّفنا بأشياء تعود علينا بالخير ، وألزمنا المنهج الذى يضمن سعادتنا « بافعل » و « لا تفعل » وهذا يقتضى أن نحاسب ، فعلنا ، أم لم نفعل .

إذن : المسألة حساب ، ليست جُزَافاً : جماعة فى الجنة وجماعة فى النار ، وقوله سبحانه فى الحديث القدسى : « هؤلاء فى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ولا أبالى »(1) بناءً على علمه تعالى بما يُؤدُّونه وقت الحساب ، ففى علم الله ما فعلوا وما تركوا .

ولا تنْسَ أن المحاسب فى هذا الموقف هو الله ، فإنْ كان الحساب فى الخير عاملك بالفضل والزيادة كما يشاء سبحانه ؛ لذلك يضاعف الحسنات ، وإنْ كان الحساب فى الشر كان على قَدْره دون زيادة ، كما قال تعالى : ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) ﴾ [النبأ]

وما دام المحاسب هو الله سبحانه وتعالى ، وهو لا ينتفع بما يقضيه على الخَلْق ، فمن رحمته بنَا ونعمته علينا أنْ حذَّرنا من أسباب الهلاك ، ولم يأخذنا على غَفْلة ، ولم يفاجئنا بالحساب على غِرّة ، إنما أبان لنا التكاليف ، وأوضح الحلال والحرام ، وأخبرنا بيوم الحساب لنستعدَّ له ، فلا نسير فى الحياة على هوانا .

فقال سبحانه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

(1) أخرج أحمد فى مسنده (٤٤١/٦) وعبد الله بن أحمد فى زوائده على مسند أبيه من حديث أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر ، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم فقال للذى فى يمينه : إلى الجنة ولا أبالى . وقال للذى فى كفه اليسرى : إلى النار ولا أبالى ».

فمن رحمته تعالى بعباده أنْ وعدهم هذا الوعد ، وعرفهم هذا الميزان وهم فى سَعَة الدنيا ، وإمكان تدارك الأخطاء ، واستئناف التوبة والعمل الصالح ، من رحمته بنا أنْ يعظَنا هذه الموعظة ويكررها على أسماعنا ليلَ نهارَ .

إذن : ما أخذنا ربنا على غِرَّة ، ولم تُفاجئْنا القيامة بأهوالها ، فمن الآن اعلم ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ① ﴾ [الأنبياء] وما دام الأمر كذلك فعلى الإنسان أن يُقَدِّر قَدْر الاقتراب ، ومتى سينتقل إلى يوم الحساب ، ولا تظن أن عُمرك هو عمر الدنيا منذ خلقها الله ، إنما عمرك ودنياك على قَدْر مُكْثك فيها ، وهو مُكْث مظنون غير مُتيقَّن ، فمن الخَلْق من عمَّر دهراً ، ومنهم مَنْ مات فى بطن أمه . إذن : لا تُؤجِّل لأنك لا تدرى ، أيمهلك الأجل حتى تتوب ؟ أم يُعاجلك فتُؤخذ بذنبك ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ① ﴾ [الأنبياء] مع أن الساعة ما زالت بعيدة ، وبيننا وبين القيامة ما لا يعلمه إلا الله . فكيف ذلك ؟

قالوا : لأن الحساب إنما يكون على الأعمال ، والأعمال لها وقت هو الدنيا ، فَمنْ مات فقد انقطع عمله ، واقترب وقت حسابه ؛ لأن المدة التى يقضيها فى القبر لا يشعر بها ، فكأنها ساعة من نهار .

فإنْ قُلْت : من الناس مَنْ يعيش مائة عام ، ومائة وخمسين عاماً . نقول : هذا شيء ظنيّ لا نضمنه ، والإنسان عُرْضة للموت فى أيّ لحظة لسبب أو دون سبب .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ① ﴾ [الأنبياء] فقال (للنَّاسِ) مع أن الحساب لهم وعليهم ، فهل معنى (للناس)

أي : لمصلحتهم ؟ لا يبدو ذلك ؛ لأنه قال بعدها : ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١)﴾ [الأنبياء]

إذن : الحساب ليس فى مصلحتهم إنما الحساب عليهم ، إذن : كيف يكون فى مثل هذا السياق ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. (١)﴾ [الأنبياء] ما دام الأمر على الكفار ؟ كان المفروض أن يقول : اقترب على الناس حسابهم .

نقول : هذا إذا أخذتَ اللام للحساب ، إنما اللام هنا للاقتراب ، لا للحساب ، أى : اقترب من الناس ، إنما الحساب لهم أو عليهم ، هذه مسألة أخرى .

وقوله : ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١)﴾ [الأنبياء] الغفلة معناها : زحزحة الشيء عن بال الواجب ألاَّ يزحزح عنه ، فكان الواجب أنْ يتذكره ولا يغفل عنه ، والغفلة غير النسيان ؛ لأن الغفلة أن تهمل مسألة كان يجب ألاَّ تهمل ، وألاَّ تغيب عن بالك ، أما النسيان فخارج عن إرادتك .

وغفلتهم هنا عن أصل وقمة الدين ، وهو الإيمان بالألوهية ، فإن آمنتَ بالألوهية فالغفلة عن الأحكام التى جاء بها الدين ، وهذه هى المعاصي ، والكلام هنا عن الكافرين بدليل قوله بعدها : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ .. (٢)﴾ [الأنبياء] والغفلة عن الربِّ الأعلى مثلها الغفلة عن حكم الرب الأعلى ، وفَرْق بين غَفْلة وغَفْلة .

وقد حدَّثَ النبى ﷺ صحابته عن هذه الغفلة ، كما روى سيدنا حذيفة بن اليمان قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين ، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر . حدثنا (أن الأمانة نزلت فى جَذْر[1] قلوب الرجال)

---

(١) الجذر : الأصل من كل شيء . وفي حديث حذيفة بن اليمان : نزلت الأمانة فى جذر قلوب الرجال . أى : فى أصلها . [لسان العرب ـ مادة : جذر] .

والأمانة هي الإيمان الحق بالله ، أي : حَلَّ الإيمان ، واستقر في القلب ، ونطقنا بالشهادة (ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن ، وعلموا من السُّنة) ثم حدَّثنا عن رَفْع الأمانة فقال : (ينام الرجل النومة ، فتُقبض الأمانة من قلبه) أي : يغفل الغفلة (فيظل أثرها مثل أثر الوكت)[1] الوكت : مثل سيجارة مثلاً تقع على الجِلْد فلسعته ، فيتغير لونه (ثم ينام النومة) أي : مرة أخرى (فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المجل) والمجل : جمرة النار (فنفط[2] فتراه منتبراً عالياً ، وليس به شيء) أي : انتفخ (فيصبح الناس) أي : بعد رفع الأمانة (يتبايعون فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدي الأمانة حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً) لندرة الأمانة بين الناس .

ثم يقول الراوي : (وقد مر عليَّ زمان ما كنت أبالي أيكُم بايعت ، فلئن كان مسلماً ليردنَّه عليَّ دينه) يعني : إنْ غشَّني في شيء أو حدث خطأ ما في البيع (ولئن كان يهودياً أو نصرانياً ليردنَّه عليَّ ساعيه) أي : الناس المكلفون بمراقبة الأسواق ، وهم أهل الحِسْبة ، فإنْ رأَوْا غشّاً منعوه ، وردوا إلى صاحب الحق حقه (وأما الآن فأنا لا أكاد أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً)[3] فإنْ كان هذا في أيامهم فما بال أيامنا ؟

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها

---

(١) الوكت : الأثر اليسير في الشيء ، كالنقطة من غير لونه . [اللسان - مادة : وكت] .

(٢) النفطة : بثرة تخرج في اليد من العمل ملأى ماءً . قال أبو زيد : إذا كان بين الجلد واللحم ماء . [اللسان - مادة : نفط] .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٠٨٦) وكذا مسلم في صحيحه (١٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه .